الحملة المصرية في شبه جزيرة العرب ١٨١١ - ١٨١٨

د. صلاح العقاد *

على الرغم من ان السلطة العثمانية لم تكن مستقرة يوما ما في نجد او الحجاز ، فان قيام الدولة السعودية الاولى اعتبر بمثابة تهديد خطير لهيبة الدولة ، نظرا الى أن وجود الدولة السعودية لم يكن مجرد حركة انفصالية عادية ، بل نازع آل عثمان في صفتهم الروحية كخلفاء للمسلمين ، لهذا لم تتوان حكومة الاستانة منذ أن انتشر النفوذ السعودي خارج نجد عن تكليف ولاتها القريبين من المنطقة بحشد جهودهم للقضاء على تلك الحركة .

وكان والي بغداد هو أول من حاول القيام بهذه المهمة سنة ١٧٩٧ م دون جدوى فاتجهت حكومة اسطنبول الى والي دمشق باعتبار انه هو المسئول عن تأمين قافلة الحج ، وقد اخذت قوافل الحجاج القادمة من الولايات العثمانية تلاقي صعوبات شديدة في الوصول الى مكة منذ سنة ١٨٠٣ .

على انه كان من المفروض ان تشارك مصر باعتبارها ولاية عثمانية في اداء دور رئيسي لمناهضة الحركة السعودية ، وذلك بحكم صلاتها الاقتصادية والادارية بالحجاز ، فمن المعروف ان قسما من الجزية المفروضة على مصر كان مخصصا لتموين الاماكن المقدسة ، كما أن تجارة الحجاز ارتبطت ارتباطا وثيقا بمصر . واذا كان قد تأخر تكليف ولاة مصر بالتدخل في شبه جزيرة العرب حتى سنة ١٨٠٦ فذلك راجع الى تعرض البلاد للاحتلال الفرنسي وما اعقب خروج الفرنسيين من فترة فوضى انتهت بتولي محمد علي للسلطة سنة ١٨٠٥ .

ولم يكد يمضي على تولي الباشا الجديد عام واحد حتى صدر فرمان بنقله الى ولاية سالونيك ومن بين مبررات (١) النقل التي وردت في هذا الفرمان أن محمد علي قصر في تأمين ايصال قافلة الحج الى الحجاز . ومن المعروف أن محمد علي قد تمكن بفضل دهائه من احتفاظه بولاية مصر التي شغف بها ، فلم يجد الباب العالي مناصا بعد ذلك من تغيير أسلوبه فتراجع عن التفكير في نقله ،

---

* استاذ التاريخ المعاصر بجامعة عين شمس بالقاهرة .

حصل على درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس ١٩٥٦ .

له عدة مؤلفات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر — اخرها كتاب بعنوان « **ماساة يونيو حقائق وتحليل** » . كما له دراسات عديدة عن منطقة الخليج العربي .

وبدلا من ذلك صار يلح عليه في القيام بحملة لتحطيم (الدولة الوهابية) فكان الامر بارسال حملة الى الحجاز يقترن بكل فرمان تجديد يصدر سنويا حتى عام ١٨١١ .

لم يعارض الباشا الطموح من حيث المبدأ فكرة القيام بالحملة استجابة لرغبات الباب العالي لكنه تأخر في تنفيذها ريثما يتغلب على مشاكله الداخلية من جهة ، ويساوم بها للحصول على مكاسب شخصية له من جهة اخرى .

وفيما يتعلق بالمصاعب الداخلية ، فقد كان من المنعذر على اي حاكم مسئول ان يغامر بتلك الحملة وسلطته لم تستقر بعد . ومن المعروف انه رغم موت زعيمي المماليك الكبيرين الالفي والبرديسي سنة ١٨٠٧ ، فان سطوة المماليك بالاقاليم المصرية ظلت قوية حتى تم التخلص منهم نهائيا في مذبحة القلعة قبيل رحيل الحملة ببضعة أشهر .

العقبة الثانية التي أخرت محمد علي في انفاذ الحملة كانت تتمثل في ذلك الخوف المستمر من ان يكرر الانجليز غزوهم لمصر كما فعلوا في حملة رشيد سنة ١٨٠٧ ، ويكمن العائق الثالث في حرص محمد علي على توفر الاموال اللازمة للتسليح والتموين والتجهيز ، خاصة وانه يعلم ان البلاد المقصود احتلالها هي بلاد فقيرة لا تدر شيئا ، بل تعيش على اعانات الدولة العثمانية او الاوقاف الخيرية المخصصة لها . ولهذا السبب اقترح محمد علي على اشراك والي دمشق أو على الاقل لم يغضب حينما أخبره الباب العالي بأن (٢) يوسف باشا ضيا سيقود حملة موازية تخرج من دمشق .

وفيما يتعلق بالمساومات فان معلوماتنا تأتي غالبا من تقارير القناصل الاجانب ، وقد أخذت هذه المساومات تتضح بعد تولي السلطان محمود والحاحه الشديد في ضرورة انفاذ الحملة لانه كان راغبا في تدعيم السلطة المركزية في الولايات .

وترد اشارة الى تفكير محمد علي (٣) في جعل ولاية مصر وراثية لاول مرة ضمن خطاب الى وكيله بالاستانة بتاريخ ٢٦ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (أوائل ١٨١١ م) .

ومن جهة اخرى كتب القنصل الفرنسي في سنة ١٨٠٩ متسائلا عما اذا كان محمد علي يعد الحملة لغزو الحجاز أم لانتزاع الشام من يد العثمانيين .وفي خطاب آخر بتاريخ ابريل ١٨٠٩ ذكر دروفتي (٤) نفس هذا القنصل الفرنسي أن والي مصر انما يستعد في حقيقة الامر لمحاربة الباب العالي ، واذا كان قد تراجع عن هذه الخطة ، واخذ يتجه الى الاعداد لحملة الحجاز ، فان ذلك راجع الى أن كلا من بريطانيا وفرنسا خذلته في مشروعه الانف الذكر .

مهما يكن ، فان الانتصارات الاولى التي احرزها محمد علي في الحجاز هي التي أوحت اليه بالمطالبة بولاية الشام منذ سنة ١٨١٣ والحق أن كثيرا من المؤرخين الاجانب والمعاصرين لوالي مصر الكبير تحدثوا عن حملة الحجاز

باعتبارها نقطة انطلاق نحو فكرة اقامة امبراطورية عربية ، ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه القضية التي أثارت كثيرا من الجدل . ويكفي فقط أن نسجل هنا خلاصة الراي الذي نوافق عليه مع (٥) فريق آخر من المؤرخين ، وهو أن ضم المراكز الاسلامية المقدسة قد بعث في نفس محمد علي الطموح الى زعامة اسلامية لا عربية ، والارجح انه فكر في زعامة داخل اطار التبعية الاسمية للدولة العثمانية أولا ، ومن المحتمل أن يكون قد تجاوز ذلك الهدف وتطلع الى خلافة اسلامية مقرها القاهرة في الفترة القصيرة التي تلت انتصاره الباهر على الدولة العثمانية سنة ١٨٣٩ .

حل محمد علي مشكلته المالية عن طريقين : أولا ، فرض رسوم اضافية على المصريين الذين عانوا كثيرا ابان الاستعداد للحملة ، وخلال فترة الحرب . فقد شملت الرسوم المواد الغذائية الرئيسية كالقمح ، كما تم الاستيلاء بالقوة على كثير من دواب النقل ، وصودرت الاوقاف الخيرية وقد سجل الجبرتي هذه الاعمال معبرا عن المرارة التي سادت مشاعر المصريين على اختلاف طبقاتهم (٦) .

والوسيلة الثانية التي لجأ اليها محمد علي للتغلب على مصاعبه المالية هي الحصول على أكبر قدر من الاعانات من حكومة الآستانة . ولتحقيق هذا الهدف لم يفتأ الباشا يبالغ في قوة الوهابيين وفي حجم الجيش الذي لا بد من حشده لمحاربتهم . فقدر النفقات اللازمة للحملة بأربعين الف كيس ، وعدد الجنود الذين يحتاج اليهم بعشرة آلاف ؛ منهم ثلاثة الاف (٧) من الفرسان . وفي هذا السبيل لم يتردد محمد علي ايضا في المبالغة فيما يرتكبه الوهابيون من أعمال تدنيس للاماكن المقدسة لاستثارة غضب الاتقياء واستدرار جيوب الاغنياء ، حتى أشاع أن سعودا كتب على الكعبة ، لا اله الا الله (٨) ، وان سعودا ظل الله في ارضه . ولم يظفر الباشا بالشيء الكثير من الاستانة بل انه لم يتمكن من الغاء الجزية السنوية المفروضة على مصر ، فاكتفى بتخفيضها ، وهكذا وقع العبء المالي الاكبر على كاهل المصريين ، وحسب ما رواه الجبرتي جمع محمد علي باسم الحملة ٢٤ الف كيس ، هذا عدا تكليف أصحاب كل حرفة بتقديم عدد من ابنائها لخدمة الجيش .

ولا شك في ان الحملة كانت باهظة التكاليف ، فقد احتاجت الى وسائل نقل ضخمة سواء بالبر أو بالبحر ، وكان لا بد من بناء سفن حديثة ، ولم يكن بمصر ترسانة لبناء السفن الا في الاسكندرية فحمل بعضها على ظهور الجمال الى البحر الاحمر كما انشئت ترسانة صغيرة في السويس . واقيمت حاميات على طول الطريق في خليج العقبة وعلى شاطيء مصر الجنوبي واستخدم ميناء القصير كمخزن للامدادات ، كما استعان بفرسان من القبائل العربية التي تسكن هذه المناطق وخاصة قبيلة الحويطات . ودفع لهم (٩) مقابل ذلك مبالغ كبيرة .

عرف نبأ تولي طوسون لقيادة الحملة بعد الانتهاء من مذبحة المماليك ، وقد غضبت حكومة الاستانة لهذا الاختيار . لانها كانت ترغب في أن يتولى محمد علي القيادة بنفسه (١٠) أما حجم الحملة فقد اختلفت فيه التقديرات ، فحسب مراسلات الباشا الى الباب العالي ضمت سبعة الاف وخمسمائة من المشاة والفرسان الاتراك والالبان ، عدا فرسان القبائل العربية الذين انضموا للحملة . أما بورك هارد الرحالة السويسري المشهور الذي كان شاهد عيان لاحداث حملة الحجاز فيقلل من حجمها الى حد كبير ، ويقدر عدد المشاة بألف وخمسمائة والفرسان (١١) بألف وثمانمائة . واذا صحت تقديرات بورك هارد فان ذلك يضع امامنا تفسيرا سهلا لفشل المحاولة الاولى التي قام بها طوسون في الحجاز .

تصف بعض المصادر حملة الحجاز بأنها تركية،كما درج المؤرخ الوهابي المشهور عثمان بن بشر على وصف الجنود بالاتراك احيانا ، وبالروم احيانا اخرى . ونحن نميل الى تأييد هذا الوصف ، فلم يكن هناك شيء مصري في الحملة سوى الاتباع الذين يخدمون الجنود اللهم الا اذا قبلنا وصف المصري باعتبار ان الحملة خرجت من مصر واعتمدت على مواردها ، ولا ينفي هذا أن بعض الوجهاء المصريين اشتركوا في الحملة لاسباب خاصة ، فقد لعب المحروقي شاهبندر تجار القاهرة دور الوساطة السرية التي ادت الى كسب ود الشريف غالب وتحويل ولائه عن الوهابيين . كذلك صحب الحملة بعض شيوخ الازهر ، ومنهم من كلفه محمد علي بذلك لتفنيد آراء الوهابيين كنوع من حرب الدعاية في وقتنا الحاضر ، ومنهم من تطوع من تلقاء نفسه لما سمعه عن مناهضة الوهابية للطرق الصوفية وشيوخها .

اتبع قسم من الحملة الطريق البري المحاذي للضفة الشرقية من البحر الاحمر . أما القسم الاكبر فقد نقل بحرا وتقرر نزوله في ينبع . ولما كانت الدولة السعودية الاولى قد تركت ساحل الحجاز بيد الشريف غالب ، فان تواطؤه مع محمد علي كان من الامور الهامة التي تيسر نزول الحملة الى البر . وهنا يجدر طرح سؤال هام وهو : كيف تترك الدولة السعودية لاحد خصومها السابقين الاستقلال بادارة هذه المنطقة الحيوية من الناحية العسكرية ؟ ان ذلك راجع الى طبيعة نظام الدولة السعودية الاولى اذ استحسن المسؤولون فيها ترك أطراف الدولة للزعماء المحليين توفيرا للاموال واعتقادا منهم انهم اقدر على تزويد الحكومة المركزية بالاموال الضرورية . فقد كان شريف مكة على سبيل المثال يشتغل بالتجارة اكثر مما يشتغل بالحكم . واقنع السعوديين بأنهم لو تركوا له جدة وموانيء الحجاز الاخرى ، فانه يستطيع ان يخصص للدولة جزءا من موارد الجمرك . ولا شك ان اهتمامات الشريف التجارية هي التي فتحت باب الاتصال بينه وبين المحروقي شاهبندر تجار مصر .

كان انطباع محمد علي اثناء الاعداد للحملة (١٢) هو ان الشريف غالب

ضالع مع الوهابيين لكنه غير رأيه عند قيام الحملة وذكر انه من الممكن تحويل ولاء الشريف . ولذلك نصح حكومة الاستانة بأن تقدم له بعض الهدايا . ولم يمنع ذلك مندوب الشريف في ينبع من ان يحاول مواجهة الحملة بالقوة البسيطة المتيسرة له . والظاهر أن الصفقة بين غالب وبين المحروقي لم تكن قد تمت بعد ، او أن الشريف ظل مترددا الى ان تتضح نتائج الاشتباكات الاولى . ولم يكن سقوط ينبع كافيا لكي يتخذ قرارا نهائيا في هذا الامر .

ويبدو ان بعض القبائل الكبيرة في الحجاز اتخذت نفس الموقف فلم تكن السلطة السعودية كاملة القبضة على قبائل الحجاز . وكان لموقف قبيلتي جهينة وحرب أثر حاسم على المعركة . وقد فاتح طوسون زعماء القبيلتين بعد نزوله في ينبع ولكنهم رجحوا كفة السعوديين عندما ظهر عبدالله بن سعود بجيشه قريبا من مضاربهم ، ورتب ابن سعود مع هؤلاء الزعماء خطة لمفاجأة جيش طوسون بالهجوم في مكان يصعب فيه الدفاع عن النفس .

وفي طريقه الى المدينة كان على طوسون ان يمر بمضيق بين جبلي صخرة وجديدة فانقض عليه جيش الوهابيين في هذا المكان ، والحق به هزيمة منكرة رغم ان طوسون يستخدم انواعا متقدمة من الاسلحة . ولذلك شعر محمد علي بضرورة ان يبرر هذه الهزيمة أمام العثمانيين حتى لا تضيع هيبته ، فذكر في خطاب الى الباب العالي أن الوهابيين حشدوا لحربه مئة وخمسين (١٣) الف رجل مجهزين بأحدث الاسلحة . ولا شك ان هذا الرقم يتجاوز كثيرا حدود المعقول .

لم يعرف ابن سعود والقبائل الموالية له كيف يستفيد من هذا الانتصار ، فانشغل الجند بالسلب والنهب ولم يتابعوا فلول الحملة المصرية التركية التي استقرت في ينبع ، وعلى العكس استفاد محمد علي من درس الهزيمة الى اقصى حد ، ولعل اهم ثمرة جناها من هذا الدرس هو التخلص من فرقة الالبان غير النظامية النزاعة الى التمرد حتى لاحظ القنصل الفرنسي (١٤) ارتياح الباشا لانباء الهزيمة . وانتهز هذه الفرصة ليتخلص من أحد زعماء الالبان أحمد لاظ حاكم الصعيد ، فاستدعي الى مصر حيث اعدم وعين ابنه ابراهيم بدلا منه ، ويرى كثير من المؤرخين أن من بين اهداف محمد علي البعيدة وراء الحملة هو التخلص (١٥) من هذه الفرق غير النظامية .

أخذ والي مصر يحث ابنه طوسون على التشبث بينبع ريثما تصله التعزيزات . وفي نفس الوقت تعددت رسائله الى الباب العالي مستحثا اياه على مزيد من المساعدات المالية ، ويلاحظ تشبع هذه الرسائل بالروح الدينية كوصف جنوده بالمسلمين في حين يسمي خصومه بالخوارج ، ويذكر بأهمية استرجاع الاماكن المقدسة . أما المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي ، فقد نسب هزيمة الحملة الى انتشار الفسق بين الجنود الالبان ، وكيف انهم يختلفون عن الوهابيين الذين يراعون ممارسة شعائر الدين الحنيف (١٦) .

والظاهر أن سعود لم يتنبه الى موقف الشريف غالب المائع . فبعد اداء حج عام ١٢٢٦ هجري ،ترك حاكم الدرعية السلطات في الحجاز كما كانت بيد الشريف . وقد شجع ذلك غالبا على أن يعرض صلحا بين الفريقين . فاقترح على طوسون أن يؤمن له طريق العودة الى مصر في حين يتعهد سعود ابن عبد العزيز بتأمين قوافل الحج العثمانية . ومن الواضح أن مثل هذه الوساطة لو كللت بالنجاح لاحتفظ الشريف غالب بمركز ممتاز في الحجاز ، وتدعمت سلطته بصورة افضل مما كانت عليه قبل قدوم الحملة . والذي حدث أن محمد علي ، ما أن علم بهذا العرض حتى (١٧) عنف طوسون الذي أبدى استعدادا للاستماع الى الشريف . وفي نفس الوقت اكد قرب وصول التعزيزات حتى يرفع من الحالة المعنوية المتدهورة بين فلول الحملة المرابطة في ينبع ، وبالفعل بدات التعزيزات تصل الى الحجاز منذ اغسطس ١٨١٢ . واتخذت في هذه المرة اجراءات حذر شديد ، فأغرى الشريف غالب لكي يتعاون تعاونا اكثر ايجابية مع الحملة حتى أنه وضع تحت تصرف طوسون عديدا من سفن النقل التي يملكها ، كذلك اهتمت قيادة الحملة بالتعرف على موقف القبائل . وبذلت الاموال الطائلة لتأمين جياد حرب وجهينة .

لم يكن للوهابيين حملات ثابتة في الحجاز سوى المدينة ، ولذلك صارت هي الهدف الاول للحملة التركية المصرية . وقد تمكنت الحملة من الوصول الى اسوار المدينة في اكتوبر ١٨١٢ ، والظاهر ان الحصار الذي استمر شهرين تخللته معارك عديدة ، اذ يقدر ابن بشر المؤرخ النجدي عدد جنود الحامية الوهابية بسبعة آلاف ، قتل منهم اثناء الحصار اربعة آلاف . وكان من الممكن مع ذلك صمود الحامية لمدة اطول لولا أن اهل المدينة تعاونوا مع المصريين وفتحوا لهم ثغرات في الضواحي . ومن المعروف ان اهل الحجاز عامة وسكان مكة والمدينة بصفة خاصة قد تضرروا من انقطاع قوافل الحج وأموال الاوقاف المخصصة للحرمين التي كانت تشكل الموارد الرئيسية لمعاشهم . وهذا ما يفسر لنا اسباب تواطؤ اهل المدينة مع الغزاة باعتراف المؤرخ الوهابي ابن بشر (١٨).

احتفل في القاهرة يوم ١٣ ديسمبر ١٨١٢ بالاستيلاء على المدينة وسط مظاهرة باهرة من الابهة . والواقع أن استرداد المدينة لم يكن فقط ذا مغزى ديني هام ، ولكنه أدى أيضا من الناحية العملية الى سرعة انهيار الوجود الوهابي في الحجاز . فبمجرد أن غادر سعود مكة اعقاب حج ١٢٢٧ هـ كشف الشريف غالب القناع ، ودعا طوسون الى القدوم ليسلمه مدينتي مكة وجدة . واندفع الاتراك تشجعهم نشوة النصر نحو الداخل فاستولوا على الطائف دون مقاومة تذكر حتى أن حاكمها عثمان المضايقي الذي يعد من اكبر قادة الدولة السعودية الاولى ، واشتهر بمغامراته الجريئة ، لم يتمكن من مغادرة المكان وسقط اسيرا في يد الاتراك . وقد ترك هذا الحادث اثرا معنويا عميقا في نفس السعوديين الذين سيحاولون افتداءه بمبلغ كبير من المال .

على ان قدرة الحملة على استيعاب انتصاراتها قد توقفت عند الطائف ، وعندما حاولت فرقة من الاتراك ان تشق طريقها تجاه نجد ووصلت الى واحة تربة الواقعة على الحدود بينها وبين الحجاز ، وجدت مقاومة عنيده . فهنا تختلف الظروف وتلتف القبائل النجدية حول زعمائها الروحيين وتخلص لهم الولاء . لذلك اضطر هؤلاء المندفعون نحو تربة الى ان يعودوا ادراجهم .

لم يؤثر هذا الحادث في النتائج المباشرة التي أخذ محمد علي يجنيها من وراء انتصاراته . فقد ابلغت الولايات العثمانية من اقصى الدولة الى اقصاها باسترجاع الحرمين الشريفين واستعدت قوافل الحج لكي تجد طريقها من جديد الى مكة والمدينة في مظاهر ابهة مضاعفة احتفاء بهذا النصر وعلا شأن محمد علي معنويا في جميع أنحاء الدولة . كما منح ابنه طوسون . باشوية جدة ، وفي الآستانة اقيمت الاحتفالات بمناسبة تسلم السلطان مفاتيح الحرمين . ولم يعد لقبه خادم الحرمين الشريفين مجرد لقب مما احرج مركز الخلافة لعدة سنوات ؛ لهذا كله صار من المتوقع ان يشعر كبار رجال الدولة بالحقد والحسد نحو محمد علي . وحتى ينزعوا عنه بعض مزايا الانتصار الذي احرزه اخذوا يشيرون الى ان الحملة لم تحقق كل أهدافها بعد ، وما زال الباشا مقصرا لانه لم يذهب بنفسه كما طلب السلطان للقضاء على (الخوارج) .

لماذا تأخر قرار محمد علي بالسفر الى الحجاز لقيادة الحملة ؟ من المعروف أنه استمر في المساومة فترة أخرى لاستصدار فرمان يضم اليه ولاية دمشق . وقد صار هذا الموضوع بعد تحقيق الانتصارات الاولى اقرب الى المناقشة الجدية مع الباب العالي الذي أخذ يتساءل عن كيفية (١٩) ادارة دمشق لو حدث ومنحت للباشا . ومن المحتمل ان يكون الحاح الباب العالي في ضرورة ذهاب محمد علي بنفسه الى الحجاز وسيلة لتدبير مؤامرات تستهدف التخلص منه . ولم يخف هذا التفكير عن الباشا الذكي ، ولذلك حرص على ترتيب أمور مصر بدقة قبل أن يغادرها . وفي اغسطس ١٨١٣ اتخذ قرار السفر الى الاراضي المقدسة .

لم تكن حالة القوات التركية المصرية المرابطة في الحجاز على ما يرام عند وصول الباشا فقد عانت الحملة من تفشي الامراض ، وقدر الرحالة الايطالي جوفاني فيناتي الوفيات بنسبة ٥٠٪ وذكر محمد علي في احدى رسائله أن الموتى بالمرض بلغوا اربعة آلاف ، أما موتى المعارك فثمانية آلاف . ومهما يكن فان التضحيات كانت هائلة يضاف الى ذلك نفق دواب الحمل مما عقد مشكلات النقل .

صادف محمد علي عند مقدمه فشل محاولة ثانية ضد تربة ، لذلك اوقف العمليات العسكرية مؤقتا ، وامضى فترة من الوقت في اتخاذ الاجراءات اللازمة لاقرار الاوضاع القبلية والسياسية بصفة عامة . ويذكرنا هذا النشاط بأعمال القوات المصرية في اليمن بين عامي ١٩٦٢ ، ١٩٦٧ فان مهامها السياسية

والاجتماعية كانت ترجح في أهميتها على العمليات العسكرية البحتة .

وبالنسبة للحجاز في هذه الفترة كان أهم اجراء سياسي اتخذه محمد علي، هو تغيير وضع شرافة مكة وتحويلها من سلطة فعلية الى وظيفة شرفية ، فأنهى بذلك عهدا طويلا من حكم أشراف الحجاز . وكان الشريف غالب هو أول ضحية لهذا الاجراء ، ولولا أن محمد علي خبير بشئون المؤامرات لما تمكن من عزل الشريف غالب وتعيين يحيى بن سرور بدلا منه . ويقال ان طمع الباشا في ثروة الشريف الهائلة كان من وراء هذا الاجراء ويدل على ذلك المكاتبات العديدة التي أرسلها الصدر الاعظم فيما بعد مطالبا برد الاموال الى الشريف الذي كان قد حمل الى القاهرة (٢٠) ، ثم استقر منفياً في سالونيك . كذلك اتصل محمد علي بزعماء القبائل التي تسيطر على الطريق بين الطائف ومكة ، وهي قبائل هذيل وثقيف وبنو سعد ، وبذل لهم الاموال والهدايا . وبعد قليل حصل على تعاون قبيلة عتيبة شرقي الطائف ، وبذا أمن الطريق الى تربة .

أدرك سعود بن عبدالعزيز مصاعب المواجهة العسكرية مع العثمانيين في معارك مكشوفة ، وذلك لعدم تكافؤ التسليح . ولعل تقدمه في السن من جهة اخرى قد ثبط همته في هذه المرحلة التي اقتصر فيها على المناوشات وحرب العصابات . وتذكر عدة مصادر ليس من بينها مؤرخون سعوديون أن سعودا حاول مفاتحة محمد علي في صلح فأرسل مبعوثين الى الحجاز يعرضان ايقاف القتال ودفع فدية كبيرة لتخليص عثمان المضايفي .

فاشترط محمد علي رد كل ما تحمله من مصاريف منذ بداية الحرب ومجيء سعود بنفسه لمقابلته . وكان هذا الشرط وحده كافيا لانقطاع الاتصالات . ولم يعش سعود طويلا بعد أن شهد مظاهر الانهيار الاولى للدولة ، وهي التي بلغت في عهده ذروة قوتها . ويعزو كثير من الكتاب سرعة انهيار الدولة الى وفاة سعود ، وفي رأينا أن عوامل الضعف كانت موجودة من قبل ، وقد ألمحنا الى أخطرها وهي التي تتمثل في ترك السلطة بيد زعماء محليين في المواقع البعيدة عن نجد . كما أن الدولة السعودية الاولى أغلقت على نفسها الابواب ومنعت الاتصال بالعالم الخارجي فلم تستفد — على عكس محمد علي — من ثمرات التقدم الحضاري . وكان من سوء حظ عبدالله بن سعود انه تحمل نتائج أخطاء اسلافه .

انقضت معظم سنة ١٨١٤ في اشتباكات اشبه ما تكون بغارات البدو ، ومن شأن ذلك أن ينهك أفراد الحملة كما يحمل خزانة مصر نفقات طائلة دون جدوى . وقد رأى محمد علي أن يتوسع في اتجاهين حول الحجاز ، اتجاه الى الشرق نحو تربة التي تعتبر مفتاح نجد ، واتجاه الى الجنوب نحو اقليم عسير ليكون خطوة يتقدم منها نحو اليمن كما يقول الدكتور محمد صبري السربوني ، اذ سيطرت على أفكار الباشا تلك الشائعات القديمة التي تتحدث عن وجود

ثروات معدنية (٢١) وزراعية غير مستغلة في اليمن . وكان من الايسر أن تسلك حملة عسير طريق البحر فتنزل في قنفذه منفذ الاقليم البحري ، غير أنه تبين بعد احتلال الميناء أن الاحتفاظ به بدون الداخل يكاد يكون متعذرا ، فقد احاطت القبائل الموالية للسعوديين بالميناء ، ومنعت الجند من استخدام الابار ، فمات الكثيرون منهم عطشا وسرعان ما غادروا الميناء الى جدة . وقد بقيت قبائل عسير متمسكة الى آخر لحظة بولائها لحكومة الدرعية . وقاومت تحت قيادة طامي بن سعود وبجروح زعيم قبائل غامد مقاومة عنيدة (٢٢) . وعندما يسقط هذان الزعيمان اسيرين سيرسلان الى الاستانة ليعدما شأنهما في ذلك شأن المضايقي حاكم الطائف الذي أعدم من قبل ، وهو نفس المصير الذي سيلقاه عبدالله بن سعود فيما بعد .

لا شك أن الجنود الاتراك قد تحملوا مشقات هائلة في اقليم عسير الجبلي حتى تكررت حوادث التمرد بسبب رواية الجنود عن كثرة الوفيات . وكانت هذه هي أول مناسبة لاحلال مصريين محل الاتراك في جيش محمد علي . وقد استخدمت القوة في تجنيدهم ، وبينما كانت الحملة تواجه هذه المتاعب في عسير، تعثر طوسون في الجبهة الشرقية ، بل تحرج مركزه في الطائف . وكان لا بد من استمرار تدفق التعزيزات طوال سنة ١٨١٤ ، لكن كيف يحسم الامر والسعوديون يتهربون من مواجهة مكشوفة ؟ لقد اضطر محمد علي الى اللجوء للحيلة حتى يجر الوهابيين الى معركة كبيرة وقد نجح بعد تواطؤ القبائل في استدراجهم الى معركة مشهورة تعرف باسم معركة «بل» (٢٣) والتي تعتبر من المعارك الحاسمة في تاريخ الحملة المصرية في شبه جزيرة العرب فقد ضمنت السيطرة على الحجاز حتى سنة ١٨٤٠ كما أثرت في الوهابيين تأثيرا معنويا شديدا ، فاكتفوا بعد هذه المعركة باتخاذ موقف الدفاع عن نجد التي هي بمثابة الوطن الاصلي لهم (٢٤) .

كان من المتفق عليه بين والي مصر والباب العالي منذ البداية الا تقف اهداف الحملة عند استرداد الحجاز ، بل ينبغي أن تضع نهاية للدولة السعودية. وبعد انتصار « بل » الحاسم أصبح الطريق مفتوحا الى نجد ، ولكن محمد علي كان يدرك أن الاستيلاء على هذا الاقليم تحول دونه مشاق كبيرة لا تقل عن تلك التي تحملها في الحجاز ان لم تزد . ولذلك اخذ يكرر مطالبه بولاية دمشق (٢٥) اذا ما تحمل أعباء حرب جديدة في نجد .

وبينما كان يقيم في المدينة يعد لغزو نجد جاءت أنباء عودة نابليون من جزيرة البا فقفل راجعا الى مصر بحجة أنها قد تتعرض لغزو خارجي . ويبدو أن الباشا نجح في اشاعة هذه الاحتمالات ، لان الجبرتي الذي يعد مقياسا دقيقا للراي العام المصري ، سجل مظاهر الخوف والهلع عند سماع هذه الانباء، وذلك في روايته لاحداث شهر جمادى الثانية سنة ١٢٣٠ هـ . أما المؤرخ الفرنسي

موريه فيرى بحق أن مسألة الخوف من عودة نابليون الى فرنسا لم تكن سوى حجة تذرع بها لمغادرة الحجاز . أما السبب الحقيقي فهو ظهور اسطول عثماني قرب الاسكندرية ولم يكن الباشا يجهل تلك المؤامرات التي لم تتوقف ضده في الآستانة (٢٦) ، وهكذا أسرع بالعودة لينفذ حكمه من كارثة محققة ، أما بورك هارد الرحالة السويسري الذي شهد هذه الاحداث عن كثب في الحجاز، فيعزو عودة محمد علي وتراجعه عن غزو نجد الى رغبته في تجنب الاعباء المالية .

مهما يكن فان عودة محمد علي لم تنه الاعمال العسكرية ضد الوهابيين في الحال ، اذ اراد طوسون أن يجرب حظه بمعركة تشبه معركة بل التي كللت راس والده بأكليل من الغار . وقد تمكن طوسون من التقدم الى احدى مدن نجد الغربية وذلك بالتحالف مع قبيلة مطير ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بولائها فترة طويلة . وفي اثناء تواجده على حدود نجد الشرقية عرض عبدالله ابن سعود — وكان لا يزال واقعا تحت هزيمة بل — الصلح ، وينفرد ابن بشر بالقول ان طوسون هو الذي اخذ زمام المبادرة نحو عرض ايقاف القتال ، ولكن الشروط الواردة لدى المؤرخين الاجانب لعصر محمد علي تؤكد ضعف موقف السعوديين ، ولذا نكاد نجزم بأن العرض جاء من عبدالله بن سعود .

وحسب هذه الشروط (٢٧) يستمر عبدالله بن سعود في حكم نجد على أن يسلم بتبعيته الروحية للسلطان ويؤدي له الجزية ، ويكون من الناحية الادارية تابعا لحاكم المدينة . ويتعهد فوق ذلك بأن يترك حرية المرور للاتراك في بلاده . ويتخلى عن اي ادعاء في الحجاز ، وانما يتمتع اتباعه فقط بحرية الوصول الى الاماكن المقدسة لاداء فريضة الحج . واخيرا يتعهد عبدالله بن سعود بالقدوم الى الآستانة ليقدم ولاءه بنفسه للسلطان .

لم يأخذ محمد علي منذ البداية عرض الصلح مأخذ الجد . كان من السهل عليه ان يتهرب من التوقيع على الاتفاق بحجة أن ابن سعود لم ينفذ الشرط الاخير ، ولم يكن من المعقول ان ينفذه بعد أن علم بمصير المضايقي وغيره من زعماء الوهابيين الذين حملوا الى الآستانة .

على كل ، لم ينتظر طوسون نتيجة هذا العرض ، اذ انه لم يطق البقاء في المواقع المتقدمة وعاد الى مصر في نوفمبر ١٨١٥ ، وانتهز عبدالله هذه الفرصة لكي يؤدب قبائل القصيم التي تعاونت مع طوسون مستخدما في ذلك وسائل عنيفة مما سيؤلبها عليه عندما يظهر ابراهيم باشا في نجد .

احتج الباب العالي لمجرد سماعه بمساعي الصلح من جانب عبدالله بن سعود ، وكان محمد علي حتى من قبل اتخاذ قرار حملة شبه جزيرة العرب قد اتفق مع الحكومة العثمانية على أن يقضي قضاء مبرما على الدولة السعودية (٢٨) في مهدها . ولعل هذا هو السبب في توجيه لوم الى والي مصر لمغادرته الحجاز دون اتمام مهمته .

وفي هذه الاثناء لم يتوقف عبدالله بن سعود عن محاولات اقناع محمد علي بعقد الصلح حتى انه أرسل بعثة الى القاهرة لهذا الغرض . وتمتلىء خطاباته العديدة التي أرسلها خلال فترة توقف القتال بين عامي ١٨١٥ ــ ١٨١٦ بعبارات التواضع والاستعطاف (٢٩) ، ومن الطريف انه أثناء وجود المبعوثين السعوديين في القاهرة ضمن مساعي الصلح ، طلب هؤلاء مقابلة بعض علماء الازهر من رجال المذهب الحنبلي ، فلم يجدوا احدا على المستوى المطلوب للحوار . والواقع ان محمد علي قابل مساعي الصلح بجفاء ، وتعمد اظهار الاستعدادات العسكرية امام المبعوثين السعوديين والح في تنفيذ شرط حضور امير الدرعية بنفسه . وما كاد الوفد السعودي يقفل راجعا الى نجد حتى حضر الى القاهرة زعماء بعض القبائل النجدية التي تعرضت لانتقام عبدالله بن سعود ، واخذوا يحرضون الباشا على استئناف القتال حتى يخلصهم من حكم الدرعية . وقد اعترف بذلك المؤرخ النجدي عثمان بن بشر (٣٠) وقال ان اسراف عبدالله في أعمال الانتقام في القصيم وغيرها قد اضعفت مركزه عند مجابهة المصريين .

لم يكن مجيء هذا الوفد القبلي ضروريا لدفع محمد علي الى استئناف القتال . وحقيقة الامر هي أن فترة التوقف استخدمت لمزيد من الاستعدادات ادراكا من الوالي بالمتاعب والمشاق التي تتطلبها حملة تستهدف الاستيلاء على نجد داخل شبه الجزيرة ، كما استخدم هذه الاشهر في مساومات مع الباب العالي . وفيما يخص الشعب المصري فقد كان عليه ان يتحمل تضحيات اضافية لخدمة أهداف الوالي والدولة العثمانية . ويصف الكاتب الفرنسي المعاصر فولابل (٣١) وسائل العنف التي اتبعها الباشا في المصادرات الجديدة للاملاك ، ويتحدث عن ازدياد بؤس الشعب المصري ، ويذكر انه من بين الاسباب التي زادت من حماس الوالي للقضاء على الدولة السعودية خوفه من انتشار المبادىء الوهابية في القاهرة ، ويروي بهذه المناسبة ان حوارا جرى بين علماء نجديين وبين علماء الازهر سنة ١٨١٥ انهم فيها الازهريون .

اتخذ ابراهيم باشا من المدينة نقطة ارتكاز للحملة الجديدة التي استهدفت تدمير الدولة السعودية . وليس من خطة هذا البحث سرد تفاصيل المعارك التي انتهت بسقوط الدرعية في سبتمبر ١٨١٨ ، وانما نقتصر على بعض الملاحظات ذات الدلالات العامة : ــ

اولا ــ ان الحملة التي قادها ابراهيم باشا لم تكن مقصورة على الجنود الالبان او الارنؤوط ، بل ضم اليها عدد غير قليل من المصريين . وتذكر بعض المصادر ان البدو سواء من شرق مصر أو من الحجاز ونجد صاروا يشكلون اغلبية من بين افراد هذه الحملة . واستخدم ابراهيم باشا

المال على نطاق واسع لاغراء بعض القبائل النجدية حتى استهوى تمروعا من قبيلة عنزة ذات القرابة بالاسرة السعودية كذلك استخدم لاول مرة الخبراء او الفنيون الاجانب في جيش محمد علي ، وهو ما لم يحدث في سنوات الحملة الاولى التي عملت بالحجاز .

ثانيا — ان ابراهيم باشا الذي لم يكترث لاستكمال اخضاع الحجاز ، قرر أن يتبع خطة مغايرة بالنسبة لنجد ، وهي أن يقتحم جميع البلدان الآهلة بالسكان والواقعة في طريق الدرعية . ولهذا السبب أمضى وقتا طويلا في حصار مدينة الرس ، وهي تقع في منتصف الطريق بين الدرعية والمدينة .

ثالثا — اختلفت معاملة ابراهيم باشا لاهالي هذه البلدان عن الاساليب الشائعة بين الجيوش العثمانية التي كانت تنكل بأهالي وحاميات البلدان التي تضطر الى الاستسلام . ولم يتبع ابراهيم باشا اساليب العنف الا مع اهالي درمة لظروف خاصة ، لذلك نسب بعض الكتاب الى الوجود المصري في شبه (٣٢) جزيرة العرب مهمة تمدينية، على ان هذه المعاملة الطيبة لم تمنع الكثيرين من اللجوء الى الدرعية خوفا من ان يتعرضوا للاذى ، وخلق ذلك مشكلة لعبدالله بن سعود اثناء حصار العاصمة اذ تكدس فيها آلاف السكان دون أن تتوفر وسائل اطعامهم . وقد يرد على راي محمد صبري بما هو معروف من تدمير مدينة الدرعية حتى زال اثرها من الوجود ، وسوق المئات من العائلات المقربة من السعودية بالقوة الى القاهرة ، ويبرر الكتاب الذين يدافعون عن محمد علي وابراهيم باشا بأن هذا الاجراء لم يتخذ الا بعد أن وقعت ثورة داخلية ضد الجيش المصري العثماني في نجد .

رابعا — لم تنقطع طلبات ابراهيم باشا طوال السنتين اللتين استغرقتهما الحملة للمؤن والاسلحة والرجال . ولما طال حصار الدرعية نحو سبعة اشهر وتعرضت اثناءها معسكرات ابراهيم باشا لحريق هائل ، اضطر محمد علي الى تعويض الخسائر من الاسلحة والذخائر والمؤن ، واهتزت ثقته بكفاءة ابنه لقيادة الحملة ففكر في استبداله بآخر (٣٣) .

ومن القضايا الهامة التي تطرح بمناسبة الحملة المصرية في شبه جزيرة العرب هي التساؤل حول ما اذا كانت الحملة تستهدف احتلالا ثابتا لنجد ، ام مجرد القضاء على الدولة التي اعلنت عصيانها على الباب العالي . ويبدو ان محمد علي لم يكن قد استقر بعد على راي واضح في هذه القضية . ولا بد انه ادرك منذ البداية صعوبة ادارة دولة مترامية الاطراف ، قليلة الموارد ،

واعتبر سيطرته على المدن المقدسة في الحجاز كسبا كافيا وانه بذلك يكون قد جنى ثمرات جهوده في الحملة ، ولم تكن فكرة اقامة دولة عظمى في المنطقة العربية تراوده بعد ، خلافا لما سوف يحدث خلال عامي ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ حينما يبسط نفوذه الى شواطيء الخليج .

ومن جهة اخرى لم يشجع ابراهيم باشا فكرة الاحتلال الثابت ، فقد اخذ يظهر تبرمه منذ البداية من الاقامة فينجد حيث لا مجال لتحقيق الطموح او الثروة والبلاد ضعيفة الموارد من الاصل (٣٤) وزادها ضعفا التخريب الذي خلفته الحرب .

وفي اثناء السنة التي اقامها ابراهيم باشا في نجد ، واجه ثورتين محليتين وكان رد الفعل هو تغيير اسلوب المعاملة نحو سكان البلاد ، واللجوء الى عادات العثمانيين التقليدية من قتل وتخريب للبلاد المفتوحة . وقد زاد هذا الموضع محمد علي اقتناعا بالاعباء الباهظة التي يتكلفها لو انه احتل البلاد احتلالا دائما ، فعجل ذلك في اتخاذ قرار الانسحاب في صيف ١٨١٩ ، ولم يكن الانجليز الذين شرعوا في متابعة شؤون الخليج يعرفون كل هذه التطورات ، فارسلوا مبعوثا خاصا ليستوضح نوايا ابراهيم باشا ولكنه وصل بعد انسحابه من نجد ، ولم يلحق به الا وهو في طريق عودته الى المدينة المنورة .

لقد كان من السهل مع وجود الاسلحة المتقدمة والتنظيمات العسكرية العصرية القضاء على الدولة السعودية الاولى كسلطة سياسية ، اما مبادىء الاصلاح الديني فلم يكن من السهل محوها من النفوس ، وهذه المبادىء كانت هي النواة لاحياء الحكم السعودي بعد انسحاب ابراهيم باشا بسنوات قليلة .

الهوامش والمصادر :

١ ــ Mengin. HISTOIRE DE L'EGYPTE SOUS LE GOUVERNEMENT MOHAMED ALI. Paris : Vol. 11, pp. 449.

٢ ــ خطاب من الباب العالي الى محمد علي . ربيع اول ١٢٢٤ هـ ، ومحافظ الحجاز . وثائق عابدين .

٣ ــ محافظ الحجاز . وثائق عابدين .

٤ ــ Ed. Driault. MOHAMED ALI ET NAPOLEON (1807—1814). Le Caire : 1925, p. 125.

٥ ــ Dodwell. THE FOUNDER OF MODERN EGYPT. p. 130.

٦ ــ الجبرتي . **عجائب الآثار** . ج ٤ ، حوادث سنة ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ .

٧ ــ محافظ الحجاز . خطاب من محمد علي الى الباب العالي . شوال ١٢٢٤

٨ ــ Vaulabelle. Histoire scientifique et militaire de l'expedition Francaise en Egypte. Paris : Vol. 10, 1836. p. 375.

٩ ــ Burkhardt. VOYAGES EN ARABIE. Paris : Vol. 2, 1835. p. 741.

١٠ ــ خطاب من الباب العالي الى محمد علي . محرم ١٢٢٦ . محافظ الحجاز .

11 — Burkhardt. 7 op. cit. Vol. 11. p. 317.

١٢ ــ كتب بذلك الى الباب العالي في ربيع ثان ١٢٢٣ هـ (١٨٠٨) . انظر محافظ الحجاز .

١٣ ــ محافظ الحجاز . خطاب من محمد علي . بتاريخ ٢٧ ذو الحجة ١٢٢٦ هـ ، وانظر كذلك كذلك وصف المعركة .

١٤ــ Burkhardt. op. cit. Vol. 2. pp. 30--52.

١٥ــ Mouriez. HISTOIRE DE MOHAMED ALI, VICE-ROI D'EGYPTE. Paris : 1857. p. 87.

١٦ ــ الجبرتي . ج ٤ ، ص ١٤٤ .

١٧ ــ محافظ الحجاز . خطاب الى طوسون . بتاريخ ١٥ جمادي الثانية ١٢٢٧ هـ .

١٨ ــ ابن بشر . عنوان المجد في تاريخ نجد . ص ١٦٠ .

١٩ ــ خطاب من محمد نجيب وكيل الباشا في الاستانة الى محمد علي . ربيع اول ١٢٢٨ هـ .

٢٠ ــ محافظ الحجاز . خطاب من الصدر الاعظم الى محمد علي . بتاريخ ١٢ محرم ١٢٢٩ هـ .

٢١ــ M. Sabri. L'EMPIRE EGYPTIENNE SOUS MOHAMED ALI. Paris : 1934. p. 617.

٢٢،٢٣ ــ يحاول ابن بشر التقليل من اهمية المعركة فيقدر عدد اتباع السعوديين الذين اشتركوا فيها بعشرة الاف ، بينما يرفع القنصل الفرنسي هذا العدد الى ثلاثين الفا . اما محمد علي فيصل بالرقم الى سبعين الفا مقابل خمسة الاف من جنوده . انظر ابن بشر . ص ١٧٩ .

٢٤ ــ Driault. Mohamed Ali et la formation de l'Empire Egyptienne.

٢٥ ــ محافظ الحجاز . خطاب الى الباب العالي . ٢٧ صفر ١٢٣٠ هـ .

٢٦ــ Mouriez. op. cit. p. 158.

٢٧ ــ Mengin. Vol. 2. pp. 37—48.

٢٨ ــ محافظ الحجاز . من محمد علي الى الباب العالي . ١٧ صفر ١٢٢٣ هـ .

٢٩ ــ نص هذه الخطابات في حيدر الشهابي . ج ٤ ، ص ٦٢٢ ــ ٦٢٧ .

٣٠ ــ المصدر السابق . ص ١٨٥ .

٣١ ــ Vaulabelle. op. cit. p. 119—124.

٣٢ ــ انظر مثلا محمد صبري السربوني في كتابة المشار اليه عن الامبراطورية المصرية في عصر محمد علي باللغة الفرنسية .

٣٣ ــ Driault. op. cit. p. 115.

٣٤ ــ انظر خطابي ابراهيم باشا الى محمد علي في محافظ الحجاز . بتاريخ جمادي الثانية ، و ١٧ رجب ١٢٣٤ وهي تنضح بالشكوى من البقاء في نجد .

***

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

توزع في اكثر من ٣٠ بلدا عربيا واجنبيا

مرجع لا غنى عنه للدارسين والباحثين والمهتمين بمنطقة الخليج والجزيرة العربية لما تشتمل عليه من : ــ

دراسات موضوعية تتناول شئون المنطقة المختلفة .

وثائق وتقارير ويوميات شاملة ومراجعاتَ هامة .

بيبليوجرافيا ترصد اوسع دائرة من الكتب والمقالات والدوريات المتعلقة بالمنطقة .

يصدر العدد القادم في مطلع تموز (يوليو) ١٩٧٦